المجلة العراقية للبحوث الإنسانية والإجتماعية والعلمية
Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
Print ISSN 2710-0952 - Electronic ISSN 2790-1254
العدد 18A2 2025 تشرين1
No. 18A2 2025 October

التعاقب الدلالي في التائية الكبرى لابن الفارض (ت: 632هـ) دراسة في ضوء الشروح الصوفية (نماذج مختارة)

م.م. عماد علي سرحان
جامعة ديالى –كلية التربية الأساسية
م.م. أحمد يونس عبدالله
جامعة ديالى –كلية التربية الأساسية

الملخص:

يتناول هذا البحث مبدأ التعاقب الدلالي في التائية الكبرى لابن الفارض، بوصفه أحد أبرز الآليات التي تُبنى بها المعاني في الشعر الصوفي. ويعتمد البحث على تحليل لغوي دلالي للنص، مع الاستفادة من شروح صوفية متعددة، أبرزها: منتهى المتدارك، الكاشاني، النابلسي، والخروصي، للكشف عن كيفية توالي المعاني وتناميها داخل السياق الشعري. وتسعى الدراسة إلى بيان أثر اللغة الصوفية برمزيتها واستعاراتها في توليد هذا التعاقب، وتوضيح العلاقة بين التجربة الروحية للمتصوف وبين البنية اللغوية للنص. كما يتتبع البحث أثر الخلفية الفكرية والروحية لكل شارح في توجيه المعاني وتوسيع أفق التأويل. وتُظهر النتائج أن التائية الكبرى تمثل نموذجًا متكاملًا لتجليات المعنى الصوفي المتعاقب، وأن مبدأ التعاقب الدلالي يُسهم في بناء نسق داخلي متماسك يزاوج بين الظاهر والباطن، ويجعل من قراءة النص الصوفي تجربة تأويلية مفتوحة وعميقة.

الكلمات المفتاحية: التعاقب الدلالي- التائية الكبرى– ابن الفارض- الصوفية- الشروح.

Semantic Succession in Ibn al-Farid's al-Taiyya al-Kubra: A Study in Light of Sufi Commentaries through Selected Examples.

Assistant Lecturer: Emad Ali Sarhan
Diyala University - College of Basic Education
ahmadyounus@uodiyala.edu.iq
Assistant Lecturer: Ahmed Younis Abdullah
Diyala University - College of Basic Education
emadalisarhan@uodiyala.edu.iq

Abstract

This research investigates the concept of semantic succession in al-Tāʾiyya al-Kubrā by Ibn al-Fāriḍ, aiming to uncover the mechanisms through which layered meanings are generated and developed within the structure of Sufi poetic discourse. The study adopts a descriptive-analytical approach, combining textual analysis with interpretive insights drawn from four major Sufi commentaries: Muntahā al-Mudārak, al-Kāshānī, al-Nābulusī, and al-Khurūsī.The research first defines the key concepts related to Sufi poetry, the nature of Sufi language, and the theoretical framework of semantic succession. It then applies this framework to selected verses from al-Tāʾiyya al-Kubrā, tracing the progressive unfolding of meaning across different interpretive layers. Findings indicate that semantic succession in Ibn al-Fāriḍ's poem functions not only as a stylistic device but also as a reflection of the mystical progression of the self. Moreover, the diversity in interpretive approaches among the

commentators highlights how their respective spiritual and intellectual backgrounds influence the production of meaning. The study concludes that al-Tāʾiyya al-Kubrā exemplifies a dynamic model of semantic continuity that integrates both linguistic artistry and metaphysical depth.

المقدمة:

يُعدُّ الشعر الصوفي أحد أبرز التجليات الأدبية التي عبَّرت عن التجربة الروحية بوسائط رمزية مكثفة، تجمع بين اللغة الفنية واللغة الروحية، مما جعله ميدانًا خصبًا للدراسات اللغوية والدلالية. وقد برزت التائية الكبرى لابن الفارض بوصفها نصًّا صوفيًا فريدًا في بنائه الفني، وغنيًا في معانيه الروحية، حيث تمثل خلاصة التجربة العرفانية التي عاشها الشاعر، وتجسيدًا شعريًا للمراحل التي يمر بها السالك في طريق العشق الإلهي.

ولأن اللغة الصوفية بطبيعتها لغة رمزية إيحائية، فإن النص الصوفي لا يُقدِّم المعنى بشكل مباشر، بل يمرر دلالاته عبر سلسلة من الرموز والتراكيب التي تتطلب تأويلاً متدرجًا. من هنا تبرز أهمية مبدأ التعاقب الدلالي، بوصفه وسيلة لتحليل تدرج المعنى وانتقاله في السياق النصي، وخاصة في النصوص التي تستند إلى تجربة روحية متحركة كقصيدة ابن الفارض.

لقد أثارت التائية الكبرى اهتمام عدد من الشراح الصوفية، الذين سعوا إلى كشف ما وراء النص من رموز وإشارات، كلٌّ بحسب خلفيته الفكرية ومدرسته الصوفية، الأمر الذي جعلها مادة مناسبة لدراسة التعاقب الدلالي في ضوء هذه الشروح، لا سيما شروح: منتهى المتدارك، الكاشاني، النابلسي، والخروصي.

ينطلق هذا البحث من تساؤل محوري: كيف يتجلّى التعاقب الدلالي في التائية الكبرى؟ وما دور الشروح الصوفية في إبراز هذا التعاقب وتفسيره؟ سعيًا إلى الإجابة، يتناول البحث التأسيس النظري للمفاهيم المتعلقة بالشعر الصوفي واللغة الصوفية والتعاقب الدلالي، ثم يتجه نحو دراسة تطبيقية لنماذج من التائية الكبرى في ضوء الشروح، مبرزًا كيف تتوالى المعاني وتتعانق ضمن نسق دلالي متماسك يعكس حركة السالك وتدرجه في مقامات العشق.

المبحث الأول: الإطار النظري للمفاهيم

أولا : ابن الفارض(632هـ) وتائيته الكبرى:

يعرف ابن الفارض عمر بن كمال الدين علي الفارض , كان أبوه من حماه , إلا أنه هاجر منها منذ صبابته متجها للقاهرة , حيث هناك ولد عمر ابن الفارض سنة (576هـ) , فهو مصري المولد والمنشأ. ((ينظر: بدوي: 1962, 24-25))

نشا ابن الفارض في العصر الأيوبي , حيث لهذه العصر مكانته الأدبية والدينية والشعرية والسياسية والصوفية , فقضى ابن الفارض حياته ناهلا من العلوم مستظلا بعلمائه حتى صار شاعرا طبق ذكره الآفاق وجعل له بين الصوفية منزلة سلطان العاشقين . (ابراهيم: 1962, 200-202)).

أما **تائيته الكبرى** فهي من أشهر قصائده حيث تتألف من (760) بيتا , عدت بذلك من أطول القصائد في الأدب العربي , فضلا عن أن أبيات القصيدة يتبع بعضها بعضا بغير نظام واضح , وكأن الشاعر ينتقل من صورة إلى صورة أخرى , ويتنوع في استعمال الضمائر من المتكلم إلى المخاطب فالغائب وهكذا , بغير ربط واضح , وهي إلى ذلك كله تحمل في طياتها مضامين ومصطلحات ورموز صوفية

متنوعة , فقد أصبحت ميدانا خصبا لدراسة الآليات والمكونات للشعر الصوفي الذي بلغ أوج ذروته على يد شعراء المتصوفة وابن الفارض من أبرزهم. ((ينظر: كبيري, 2022,))

ثانيا : الشعر الصوفي واللغة الصوفية :

نقصد بالمصطلح الصوفي : ((ألفاظ جرت على ألسنة الصوفية من باب التواطؤ , وهم يستعملون هذه الألفاظ ويفهمون المقصود منها , وقد نبهوا بها على مواجيد وأذواق وأحوال ومقامات ومنازل وعلوم مستنبطة من القرآن والحديث))((نصر: 1971, 174))

ويمكن أن نعزو سبب هذا التواطؤ للألفاظ على ما ذهب إليه القشيري بقوله : ((من تقريب الفهم على المخاطبين بها, او تسهيل على اهل تلك الصنعة في الوقوف على معانيهم باطلاق ... وقد قصدوا بها الكشف عم معانيهم لأنفسهم , و الإجمال والستر على من باينهم في طريقتهم لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب , غيرة منهم على اسرارهم ان تشيع في غير اهلها))((القشيري: د.ت, 15)).

اما لغة الشعر الصوفي فتعد لغة مليئة بالرموز والتشابيه، تتسم بتعدد دلالاتها التي تسمح بتفسيرات متنوعة. إذ تعتمد هذه اللغة على أساليب تخيلية وتمثيلية ورمزية غير مباشرة، مما يجعلها مجالاً غنيًا للبلاغة، حيث يستخدم الصوفية في تعبيراتهم استعارات تحمل إشارات ومعانٍ تختلف عن تلك المستعملة في الأدب أو الفلسفة أو السياسة وغيرها. ((ينظر: هزاع: 2008, 72-73)).

ويُفهم الرمز الصوفي على أنه تعبير حسّي يستعمله المتصوفة ليس لغرض ذاته، بل للإشارة إلى معانٍ خفية وراء الكلمات الظاهرة، هذه المعاني تحتاج إلى جهد وتأمل عميق لا يدركها سوى المتمرسين والمتعمقين في هذا العلم. ((ينظر: سليطين: 1995, 93))؛ لذا يمكن القول : أنه وظَّف اللغة الصوفية في مبدأ التعاقب الدلالي بأسلوب يعكس عمق التجربة الروحية وتجلياتها، حيث تتوالى المعاني وتتداخل الرموز بطريقة متدرجة تُمكن القارئ أو المتأمل من الانتقال من دلالة سطحية إلى أخرى أعمق وأكثر باطنية. يعتمد التعاقب الدلالي في النصوص الصوفية على سلسلة من الإشارات والدلالات التي تتلاحق وتتكامل لتكوّن نسقًا دلاليًا متماسكًا، يعبر عن مراحل السلوك الروحي أو تجارب العشق الإلهي.

يتم في هذا السياق استثمار الرموز اللغوية والتعابير المجازية بحيث تتغير دلالتها حسب موقعها في السلسلة النصية، مما يتيح تحقيق تعاقب دلالي يعكس التحول في حالة الوعي الصوفي أو مستوى الإدراك الروحي. وهذا التوظيف اللغوي يتطلب من القارئ تأويلاً عميقًا، لأنه يكشف عن طبقات متعددة من المعاني تتوالى تدريجيًا، في إطار متن شعري يربط بين الظاهر والباطن، وبين الحسي والروحي

ثالثا: مفهوم التعاقب لغة واصطلاحا:

بما ان هذه الدراسة تقوم على ظاهرة التعاقب الدلالي في شروح القصيدة التائية لابن الفارض الأمر الذي يقتضي الوقوف أولا على مفهوم التعاقب لغة واصطلاحا , ففي اللغة يشتق لفظ (التعاقب) من الجذر الثلاثي (عَقَبَ) الذي يدل على (التتابع والتوالي) ويقال ((تعاقب القوم على الشيء إذا توالوا عليه واحدا بعد آخر وقد في كتاب العين (كل شيء يعقب شيء فهو عقيبه كقولك: خلف يخلف بمنزلة الليل والنهارإذا قضى أحدهما عقب الآخر , فهما عقيبان , كل منهما عقيب صاحبه . ويعتقبان ويتعاقبان إذا جاء أحدهما ذهب الآخر))((الفراهيدي: د.ت, 1\179))ر, وفي الصحاح قوله: ((وعاقبت الرجل في الرحلة إذا ركبت انت مرة وهو مرة أخرى))((الجوهري: 1987, 1\185)).

وهذا التعريف يوافقه ابن منظور بقوله: ((وعاقب بين الشيئين إذا جاء بأحدهما مرة وبالآخر مرة)) ((ابن منظور: 1414, 1\613)).

اما التعاقب اصطلاحا: فيعد هذا المصطلح من المصطلحات التي تفتقد الى تعريف محدد يساعدنا في تمييزه ممن سواه من المصطلحات الأخرى, أو يمكننا من اتخاذه دليلا للتعبير عن هذه الظاهرة اللغوية

ووصفها((ينظر: الديرشوي وآخرون , 2021, 98)) , الا انا وجدنا بعض التعريفات الحديثة لهذا المصطلح فعرف التعاقب على انه: ((اللفظان المتفقان في المعنى المرويان بوجهين , بينهما اختلاف في حرف واحد , كقضم , وخضم , وجاس , وحاس ويسمى أيضا الاعتقاب))((ابن يعيش: 2001, 2\108))

إنّ هذا التعريف يقترب من مفهوم التوسع اللفظي لمفردات اللغة الذي عرفه بعض الباحثين ((ينظر: الديرشوي وآخرون, 2021, 98)) فهو ((نطق الكلمة الواحدة بكيفيات متعددة تتمثل في تغيير حرف بشبيهه أو قريب منه مخرجا , او بتغيير حركة بغيرها بلا تغيير في المعنى))((ديرشوي , المحجوب: 2021, 72)), وفي تعريف آخر هو((التداول والتبادل بين عنصرين لغويين على معنى واحد لقرب الدلالة بينهما))((النجار, 2000, 135)).

إذن يمكن القول أن هذا المصطلح ما هو إلا: ((ظاهرة لغوية عامة تدخل في كل مستويات اللغة , وان هدفها الأساس هو طلب الخفة))((عبد العزيز: 2006, 137)).

اما الدلالة: ففي اللغة : الهدي وما يستدل به عن الطريق (الرازي , 1989, ص: 184), فالدال والمدلول أصلان : أحدهما إبانة الشيء بأمارة تتعلمها والآخر اضطراب في الشيء (ابن فارس 1979, 2\260).

((فنلحظ أن المعنى اللغوي للدلالة , يعني: إزالة الإبهام عن الشيء وإيضاحه , وقد انتقل هذا المفهوم حقل الألفاظ فاصبحت الدلالة تعني دلالة الألفاظ على المعاني))(منى سالم: 2024, 31).

أما اصطلاحا: فهي : ((كون الشيء بحاله يلزم من العلم به العلم بشيء آخر والشيء الأول والثاني هو المدلول وكيفية دلالة اللفظ لاصطلاح علماء الأصول محصورة في عبارة النص وإثارة النص واقتضاء النص))(الجرجاني: 1985,ص: 215)

المبحث الثاني : دراسة تطبيقية على التعاقب الدلالي في القصيدة التائية:

تتجلى اهمية التائية الكبرى لابن الفارض من خلال نظرية التعاقب الدلالي بسمة طبيعتها الرمزية اولا وتعدد شروحها ثانيا , فقد وفرت تلك الشروح مستويات متعاقبة من الفهم والتأويل , فاختلفت باختلاف الخلفيات المعرفية للشارحين ومناهجهم في التعامل مع النصوص , لأن التائية ليست من القصائد التي تكتفي بدلالة واحدة مستقرة , بل نراها عبارة عن نص تأويلي ينفتح على تحول المعنى وتوالده , فقد عبر عبد الغني النابلسي عن ذلك بقوله: ان الفاظ القصيدة التائية لا يجوز حملها على ظاهرها بل أنها تشير معان دقيقة ومعارف لدينة , ومعانيها متغيرة بتغيير حال السالك في مقامات الطريق((ينظر: النابلسي: 2017, 1\5)), ثم يبين النابلسي أهميتها في الشعر الصوفي قائلا: ((هي من أعظم ما نظم في العشق الالهي وهي ديوان المعارف والمقامات والأحوال , من قرأها وذاقها علم أنها ليست من كلام البشر , بل هي إلهام من حضرة الجمال)) ((النابلسي, 2017, 1\3))

اما القيصري فقد عدها من خلاصة المدرسة الصوفية بمصطلحاتها الدقيقة حيث قال في

بداية شرحه : ((نظم عجيب أودع فيه الناظم دقائق الطريق , وتكلم عن مقامات السالكين واحوال العارفين , بلغة رمزية لا يفهمها إلا من ذاق الوصال , وذاق الفناء , وذاق البقاء)) ((النابلسي: 2017, 59)).

لنفهم من كلامهم ان التائية الكبرى ليست مجرد قصيدة وعظية أو وجدانية بقدر ما هي منظومة معرفية تحاكي تجربة روحية معقدة , يجعلها نص دسم للتفسير والتأويل , ويمنحها قابلية شديدة للتعاقب الدلالي , سواء داخل النص نفسه أو في شروحه المتعددة .

فقد اجمع الشراح على انها رمز عميق يعكس تجربة صوفية في اسمى تجلياتها , ما يجعلها تحتمل طبقات متعددة من المعاني . كما سنبين من خلال تحليل أبياتها:

يقول ابن الفارض رحمه الله: ((ابن الفارض: 1984, 81))

ولم لا أباهي كُلَ مَنْ يدّعيْ الهوىْ بِهاْ وأناْ فيْ افتخاريْ بخطوةِ

يعكس هذا البيت رؤية الشاعر بتفرده في ميدان المحبة الالهية , ويبدو أن الشراح تعاقبوا في تفسيره على نحو يظهر نقلات دلالية متدرجة من المستوى اللغوي الظاهري إلى أفق الذوق الصوتي والرمز الباطني مما يبرز هذه الظاهرة بجلاء .

حيث يفسر النابلسي لفظة (اباهي) بالمفاخرة و(الخطوة) بمعناها اللغوي المنزلة أو المرتبة , ويعزو الافتخار الى كون الشاعر قد بلغ مقاما بالمحبة ويراه أهلا للمفاخرة((ينظر: النابلسي, 2017, 866)) , فمستوى الدلالة عنده لغوي بحت يركز فيه على مكانة معنوية مكتسبة بعيد عن الغوص في الفكر الصوفي. في حين نرى الخروصي ينتقل إلى مستوى أعمق دلاليا حيث لا يعنى فقط بالتفسير اللغوي ؛ بل يؤول (الخطوة) بأنها درجة في السلوك الصوفي , حيث تشير الى وصوله مقاما عاليا لا يبلغه الا الخواص((الخروصي: 2011, 396)).

إذن فهو يرى أن الناظم (أعطي خطوة) في تقربه فهي مرتبة قربه الخاص من نهاية المحبة ؛ لذلك فأن (مدعي الهوى) لا يدرك هذه المرتبة ؛ بل يقف على حدود دعواه فقط.

فالمستوى الدلالي عنده هنا (صوفي) والمفاخرة عنده تميّز في المقامات لا غرور بذاته.

اما عند كاشاني فيبلغ التأويل ذروته من حيث الشفافية الدلالية ف(الخطوة) عنده هي زوال المسافة , حيث يرى ان الناظم قد تجاوز مرتبة القرب النسبي إلى فناء البعد نفسه.((النابلسي: 2017, 364)), أما (الافتخار) عنده فهو افتخار بالفناء في المحبوب , وليس بمقام مكتسب أو حالة متميزة وانما الغاء المسافة بين العبد وربه. ((النابلسي: 2017, 364)), فالمستوى الدلالي عنده يكشف عن ذوق دلالة التوحد الصوفي حيث يتحول البيت من تقرير بالمفاخرة الى اشارة رمزية.

إذن نلحظ تدرج المعنى من المفردة إلى الرمز , ومن الظاهر إلى الباطن في سياق تعاقبي يعكس تطور الوعي التأويلي عند الشراح ويبرز غنى النص الصوفي وقابليته لتعدد القراءات .

ومنه قوله: ((ابن الفارض: 1984, 50))

ويَحسُنُ إظهارُ التجلّدِ للعِدىْ وَيَقبحُ غيرُ العجزَ للأحبّةِ

نرى أن هذا البيت يجمع بين التضاد الشعوري بالفظتين(يحسن, يقبح) في التعامل مع (العدو و الحبيب) , فهو يرى أن الكتمان والتلجد حسن أمام الأعداء , بينما إظهار ضعفه وعجزه أمام الأحبة لا يعد قبحا , هو الأصل وكل ما سواه قبيح.

فالتعاقب الدلالي في هذا البيت يتطور من فهم أخلاقي اجتماعي بسيط إلى قراءة صوفية سلوكية , ومنها إلى رمزية تجعل من العجز أمام المحبوب غاية الغايات , ومن التجلد امام الناس قبحا وخوفا من الرياء .

فالنابلسي يفسر في شرحه للبيت على أساس منهج لغوي واخلاقي و(التجلد) عنده يفسر بالتماسك والصبر. ((ينظر: النابلسي: 2017, 533)), و(العدى) هي ((المعادين له حذر الشماته به)) ((ينظر: النابلسي: 2017, 533)), فوجب إظهار الصلابة وهو من الشهامة والقوة والكرم , أما (العجز) أمام

الأحبة ((فيحسن إظهار التضاعف لهم وشكوى الحال إليهم)) ((ينظر: النابلسي: 2017, 533))؛ لأنهم يرأفون ويشفقون على من يحبهم((ينظر: النابلسي: 2017, 533))

فالدلالة عنده تمثل حكمة أخلاقية في التعامل مع الآخر بحسب موقعه دون الغوص في الأبعاد الصوفية العميقة.

أما كاشاني فيرى: ان (العدى) هم قوى الوهم والحجاب والتمييز , و(التجلد) هو ستر حال الفناء عن أعينهم و (العجز) هو التحقق بحقيقة العبودية أمام الحضرة الإلهية , وأي تصنع للقوة أو التجمل أمام المحبوب الإلهي قبيح لأنه من آثار الأنا((ينظر: كاشاني : 1969, 121)).

فالدلالة عنده في البيت لا يتحدث عن البشر بل عن حضور العارف بين الحضرتين , حضرة الخلق التي فيها التجلد وحضرة الحق التي فيها العجز.

أما الخروصي فمن خلال قراءتنا وفهمنا لشرحه نراه يؤول البيت ضمن نطاق السياق الصوفي فـ(العدى) عنده تحمل على معنى النفس والشيطان أي: كل العوائق التي تقع في طريق السلوك , اما (العجز) أمام الأحبة فهو الضعف أمام تجليات المحبة الإلهية , وهذا عنده محبوب ومرغوب فيه ؛لأن المحب الحقيقي لا يملك شيئا أمام الجمال الإلهي((الخروصي: 2011, 181)).

فالدلالة عنده في البيت هو تعبير عن التخلي عن كل ما هو عائق امام الحضرة الالهية , و(التجلد) مجاهدة في طريق السلوك , والعجز تلذذ امام الحبيب الحق .

أما عند قراءتنا لشرح الفرغاني فالبيت عنده يشير إلى التميز في المقامات بين حضرة الخلق وحضرة الحق , وتفسيره كأنه يجمع بين الشروح التي سبقت فالدلالة عنده واضحة و (العدى) عنده الخلق المحجوبون عن أسرار المحبة الالهية , و(التجلد) إخفاء الحال والتستر , والأحبة هم (أهل الله) والمقامات العليا من الحضرة الألهية و (العجز) هو الفناء والانكسار التام امام جمال الحق وهو أعظم مراتب المحبة , فكل تصنع أو ادعاء للقوة في هذا المقام مذموم ((الفراغاني : 2007, 197- 198)).

فالفرغاني يمكن القول أنه :يعد نقلة متقدمة في سلسلة التعاقب الدلالي فأنه لم يكتف بمستوى السلوك كما فعل الخروصي , ولم يتوقف عند الذوق الرمزي المنفصل كما فعل الكاشاني , بل نجده ربط بين السلوك الذوقي والتحقق الفلسفي .

ومن ذلك نلحظ قوله أيضا: ((ابن الفارض: 1984, 46))

وبالحَدْقِ استَغنيتُ عَنْ قَدحيْ ومَنْ شَمائلِها لاْ مِنْ شموليْ نَشوَتيْ

إن اختيارنا لهذا البيت كونه يفيض بالرمزية الصوفية ويستدعي تأويلا متعدد المستويات , يجعله مثاليا في اختياره لابراز التعاقب الدلالي من بين الشراح.

فالنابلسي في هذا البيت يركز على المعنى البلاغي الظاهري والبلاغي , حيث يرى ان الشاعر ابتعد عن شرب الخمر بالنظر إلى محبوبته , فـ(القدح) عنده ((أراد أحداق المحبوبة يعني عيونها السود كناية عن ظلمات الكائنات))((النابلسي: 2017, 506)), إما الشمائل فهي أخلاق المحبوبة وحركاتها. ((ينظر: النابلسي: 2017, 506-507))؛ لذا نلحظ أن المستوى الدلالي عنده بلاغي مجازي , لم يتجاوز الصور العاطفية .

اما الخروصي فلفظة (الحدق) تفهم عنده على أنها تجليات الحضرة الإلهية وليست عيون بشرية((ينظر: الخروصي: 2011, 160)),و(القدح) هو وسائل المعرفة الحسية (كالعقل والتجربة) , و(الشمائل) ليست صفات ظاهرية لشخص معين , أنما هي أنوار صفات الحضرة الإلهية . ((الخروصي: 160)).

فالمعنى عنده نابع من أنوار الحضرة الإلهية لا من الكأس, ونشوته نابعة من تجلي تلك الصفات ؛لذا يمكن ترجيح المستوى الدلالي عنده ان يكون صوفي تأويلي , يظهر نقلة من الحسي إلى الروحي , ونرى الكاشاني لا يبتعد كثيرا عن سابقه بل يوافقه في التعاقب الدلالي للبيت, فهو يؤول (الحدق) على انه عيون الحضرة الإلهية , و (الشمائل) كذلك تعني الصفات الإلهية (كالرحمة والجمال , والحياة) ((كاشاني : 1969, 98)), فالمعنى عنده لا يختلف عما قدمه الخروصي .

إذن فما تقدم من كلام الشارحين نرى تعاقبا دلاليا تصاعديا يبدأ من الإدراك الحسي للمحسوسات ونسبها للبشر , إلى التذوق الصوفي للصفات , منتهيا بالكاشاني الذي يؤول البيت إلى الاندماج الكلي مع الذات الإلهية وصفاتها. فهذا النص يتحول عبر الشروح من صورة وجدانية إلى تجربة ذوقية , ثم إلى حالة توحيدية رمزية , ما يعكس قابلية النص لتعدد المقامات التأويلية .

ومن ذلك قوله أيضا: ((ابن الفارض: 1984, 46)):

وأبثثُها ما بي ولم يكُ حاضري رقيبٌ بقا حظ بخلوةٍ جلوةِ

يتجلّى في هذا البيت تعاقب دلالي واضح، تمثّل في تتابع المقامات الصوفية وتراتب التجربة الروحية من حالٍ إلى حال. وقد تناول شراح التائية الكبرى هذا البيت بالشرح والتأويل، مبينين كيف تنتقل الذات الصوفية من مقام إلى آخر، في تسلسل يكشف عمق البنية الروحية للنص.

ففي شرح "منتهى المتدارك"، يُفَسَّر البوح في "أبثثتها ما بي" على أنه بوح صادق نابع من مقام الصفاء والأنس، وهو أولى درجات المكاشفة، يعقبه نفي الرقيب في قوله "ولم يكُ حاضري رقيب"، دلالة على رفع الحجاب وانعدام المراقبة الدنيوية، لينتقل بعد ذلك إلى وصف البيئة التي تحققت فيها هذه المكاشفة: "قاحط"، أي مكان جاف يرمز إلى صفاء الحسّ من شوائب التعلق، تمهيدًا لبلوغ مقام "خلوة جلوة"، الذي يمثل أوج التجربة الصوفية، حيث يغدو العارف خاليًا من الخلق، حاضرًا مع الحق في كل حال، فالجلوة لم تعد نقيضًا للخلوة، بل صارت استمرارًا لها في مقام الفناء.((الفرغاني : 2007, 158)).

أما الكاشاني، فيربط بين هذه الألفاظ على مستوى فلسفي-وجودي؛ فالبث عنده تعبير عن فيض القلب عند تجلي السر الإلهي، وغياب الرقيب دليل على نفي الغيرية والفصل بين العبد والحق. ((ينظر: الكاشاني : 103)) , و(القاحظ) عنده رمز لانقطاع الحسّ وذهاب الكثرة، ومن ذلك قوله : ((قاحظ إشارة إلى انقطاعه عن الحظوظ النفسانية لأنه طلب الوصول والرؤية))((الكاشاني : 103)).

أما(الخلوة الجلوة) فهي حالة شهودية يتحقق فيها العارف بوحدة الوجود، فيرى الله في كل شيء، فينتقل من المفارقة إلى المعية.

ويُبرز النابلسي أن التعاقب الدلالي يبدأ من لحظة "الأنس بالحديث مع المحبوب" في البوح، ويمرّ بالتحرر من رقابة النفس والخلق، ويتطور عبر "القاحط" كرمز للتجريد والتخلية، حتى يبلغ السالك مقام الجمع بين الخلوة والجلوة، حيث يشهد الحضرة الإلهية في كل تجلّ، ويغيب عن المراتب الظاهرة. ((ينظر: النابلسي: 2017, 509)).

أما الخروصي، فيرى أن الشطر الأول يعبر عن بوح العارف بعد التمكين، حين تندك الأنانية ويُفصح السرّ بلا حجاب. ويُفَسِّر "الرقيب" بالنفس والخلق، و"القاحط" بحال التجفف من شواغل المادة، ثم تأتي "الخلوة الجلوة" لتُعبّر عن مقام عالٍ يتحقق فيه العارف بالتوازن بين العزلة والمخالطة، دون أن تنقطع صلته بالحضرة. ((الخروصي: 161)).

وبهذا يظهر أن الشراح الأربعة يتفقون على أن البيت يجسّد تدرجًا روحيًا من الإفشاء إلى الفناء، وأن التعاقب الدلالي فيه ليس تتابعًا لفظيًا فقط، بل هو تعاقب كشفي روحي ومقامي، ينتقل فيه المعنى من التعبير إلى التحرر، ثم التجريد، فالتحقق الكامل بحضرة الحق.

وكذلك قوله: ((ابن الفارض: 1984, 46)):

ففي حانِ سُكري حانَ شكريَ لِفِتْيَةٍ بهم تمَّ لي كَتْمي الهوى مع شُهْرَتي

يظهر بناؤه الدلالي مشبعًا بالحركة الصوفية المتدرجة التي تُظهر تعاقبًا معنويًا واضحًا، يتنقل فيه الشاعر من حالٍ إلى آخر، كاشفًا عن تجربة روحانية تتأرجح بين الذوق الخفي والتجلّي الظاهر. وقد بيّن شُرّاح التائية الكبرى كيف يتتابع هذا المعنى على مستويات متداخلة، تجمع بين الترقّي المقامي، والتدرّج الشعوري، والتكثيف الرمزي.

ففي شرح "منتهى المتدارك"، يُفَسَّر "سُكري" بأنه مقام الوجد والانخطاف، أي ذروة الشعور الروحي، بينما "شكري" هو مقام الإفاقة بعد السكر، أو ما يُعرف بـ"الصحو"، وفي ذلك تعاقب دلالي من الغيبوبة الروحية إلى الوعي الشاكر. أما "لفتية"، فهم عنده أهل الطريق الذين رافقوا الشاعر في مقامات السلوك، و"بهم تم لي كتمي الهوى مع شهرتي" يُبرز مفارقة دلالية بين الستر والانتشار، وهي من خصوصيات السالكين الراسخين. ((الفرغاني: 2011, 152- 153)).

وفي شرح الكاشاني، يظهر المعنى في سياق فلسفي، حيث "السكر" يدل على الفناء في الذات الإلهية، و"الشكر" على البقاء بعد الفناء، أي تعاقب بين غياب الأنا وعودة الشعور المضيء بفضل هذا الغياب. الفتية هم الأرواح المكمّلة التي تُسند السالك في سيره، و"كتمي الهوى مع شهرتي" تعبير عن التحقق بمقام الخفاء في الظهور، أي أن شهرة المحبة لا تلغي سرّها، بل تؤكده في بُعد أعلى.((كاشاني: 101- 102))

أما عبد الغني النابلسي، فيقدّم قراءة ذوقية، يرى فيها أن السكر هو الغيبة عن الإدراك، تليه لحظة الشكر كتعبير عن الحضور الواعي، ثم يظهر الفتية كمؤثرين في تمام التجربة. ويبرز التعاقب من الذوبان في المحبوب، إلى الاعتراف بنعمة العشق، ثم إلى تحقق المعجزة الروحية: أن يبقى الهوى مكتومًا رغم الشهرة، فيجمع الشاعر بين حالين متعارضين دلاليًا في الظاهر، متكاملين في الباطن. ((ينظر: النابلسي: 507))

وفي شرح الخروصي، يُفَسَّر "السكر" على أنه مقام الذوق والانفعال الوجداني، و"الشكر" على أنه مقام التمييز والشهود الواعي، بينما "الفتية" هم أولياء الله الذين يُعينون على الثبات. والتعاقب الدلالي هنا يبدأ من الذوق الفردي، إلى الامتنان الجمعي، وصولًا إلى كمال التجربة الروحية التي تتجلّى في الجمع بين الكتمان والشهرة، من غير أن يطغى أحدهما على الآخر.((ينظر: الخروصي: 160)).

وعليه، فإن هذا البيت يُبرز تعاقبًا دلاليًا دقيقًا، يبدأ من السكر ← الشكر ← الصحبة ← الجمع بين الخفاء والظهور، ويتدرّج المعنى فيه في سياق تصاعدي، تتوالد فيه المقامات الروحية من بعضها، في بنية متماسكة من المعاني المتلاحقة، تمثّل جوهر التجربة الصوفية عند ابن الفارض.

ومن ذلك قوله أيضا: ((ابن الفارض: 46))

وحزني ما يعقوبُ بثَّ أقَلُّهُ وكلُّ بلاءِ أيوبَ بعضُ بليّتي

يندرج المعنى في هذا البيت من التمثيل بالمحن النبوية إلى الادعاء بتجاوزها , مستدعيا قصتين قرآنيتين , تمثلت الأولى في قصة يعقوب عليه السلام وهي رمزا للحزن والبكاء الطويل على فقد يوسف عليه السلام, والثانية في أيوب عليه السلام رمزا للبلاء الجسدي والروحي والصبر عليه .

إن هذا التعاقب الدلالي الحاصل في البيت لا يفهم بوصفه ترتيبا زمنيا ؛ بل دلاليا من الألم العاطفي إلى الابتلاء الكلي ثم إلى بلاء الشاعر نفسه الذي يعلو بلاء الانبياء على لسان المحب المتصوف .

فالنابلسي يعد البيت تعبيرا عن عشق صرف لا يدركه من لم يتذوقه, ويفسر المبالغة على أنها إشارة لحال المحجوبين الذين لا يفهمون مقاسات العاشق , فيرى إن حزن يعقوب على فقد صورة بينما حزن الشاعر على فقد الحق ذاته . ((ينظر: النابلسي, 516)).

أما الكاشاني فيفسر البلاء بأنه بلاء الوجود , حيث لايبقى وجود مستقل , و(الحزن) هو علامة على الفناء . ((ينظر: كاشاني : 109)).

ويرى الخروصي إن في البيت ترميزا للانتقال من بلاء الأجساد إلى بلاء الأرواح , ف(حزن) يعقوب كان على فقد ولده , وأيوب على جسده , أما الشاعر فبلاؤه في حجاب قلبه عن محبوبه. ((ينظر: الخروصي: 169)).

وينفرد الفرغاني في تفسيره بأن الشاعر لا يذم الأنبياء ؛ بل يوضح أن بلاء المحبة أشد من بلاء الامتحان , فالمعنى يتدرج من بلاء متعلق بالعرض الخارجي إلى بلاء داخلي ناتج عن الهيام المطلق . ((ينظر: الفرغاني: 171))

البيت يمثل تسلسلاً دلاليًا صاعدًا، من الحزن الدنيوي والبلاء الجسدي، إلى البلاء الروحي والمعاناة الصوفية الناتجة عن الغيبة عن الحضرة الإلهية. وقد اختلف الشراح في تفسير هذا التعاقب حسب خلفياتهم الصوفية، لكنهم أجمعوا على أن التجاوز الرمزي للأنبياء لا يحمل إنكارًا لمراتبهم، بل تعبيرًا عن احتراق وجداني لا يُقاس بمعايير ظاهرية.

الخاتمة

وختامًا، يتضح من خلال هذا البحث أن التائية الكبرى لابن الفارض ليست مجرد قصيدة صوفية تقليدية، بل هي نص غني بالمعاني والدلالات التي تتوالى في سياق متماسك عبر مبدأ التعاقب الدلالي. وقد أظهرت الدراسة كيف أن اللغة الصوفية في التائية تستخدم الرموز والتعبيرات المجازية بشكل دقيق يعكس المراحل المختلفة للتجربة الروحية، مما يجعل النص يعيش حركة دلالية مستمرة تتدرج بين الظاهر والباطن.

كما برز الدور المحوري لشروح التائية الكبرى في إبراز هذا التعاقب الدلالي، حيث ساهم كل شارح في تفسير وتوضيح مستويات الدلالة بما يتناسب مع خلفيته الفكرية والصوفية، مما أضاف غنى وتحليلًا معمقًا للنص. وتؤكد هذه الدراسة أن التعاقب الدلالي ليس فقط أداة تحليلية، بل هو مفتاح لفهم الطبيعة الديناميكية للنص الصوفي وأبعاده الروحية والفنية.

ومن خلال رحلتنا في البحث توصلنا لعدة نتائج يمكن أجمالها بالآتي:

1. تبين أن التائية الكبرى تستخدم اللغة الصوفية برموزها المتعددة التي تتطلب تأويلاً دقيقًا لفهم مراحل السلوك الصوفي وتجربة العشق الإلهي.

2. تم الكشف عن أن التعاقب الدلالي في النص الصوفي يعمل على تحقيق انتقال تدريجي في مستويات المعنى، مما يعكس حركة روحية داخل النص.

3. أظهرت شروح ابن الفارض المختلفة اختلافات في التفسير مرتبطة بالخلفيات الفكرية لكل منها، مما أثر بشكل واضح في إبراز التعاقب الدلالي وتفسير رموز النص.

4. أكد البحث أن التعاقب الدلالي يعزز الفهم العميق للنصوص الصوفية ويُبرز تداخل البعد الفني مع البعد الروحي في الشعر الصوفي.

5. يعكس مبدأ التعاقب الدلالي في التائية الكبرى تجربة روحية معقدة تحتاج إلى تأمل مكثف، ويعتبر هذا المبدأ أداة ضرورية لفك رموز الشعر الصوفي.

6. ساهمت اللغة الصوفية المجازية في توسيع دائرة الدلالات، مما جعل التائية الكبرى نصًا متعدد الطبقات يحمل أكثر من معنى في كل مرحلة من مراحل السرد الشعري.

7. يبرز البحث أهمية دمج التحليل الدلالي مع التحليل الفلسفي والصوفي لفهم النصوص الصوفية بشكل شامل، وهو ما يشكل توجهاً جديداً في الدراسات الصوفية الأدبية.

المصادر والمراجع

- ابن الفارض سلطان العاشقين : زكريا أبراهيم , مكتبة مصر , القاهرة , ط1, 1960م.
- ابن الفارض والحب الإلهي : عبد الرحمن بدوي , دار القلم القاهرة ط1 , 1962م.
- إيضاح نظم السلوك إلى حضرة ملك الملوك : ناصر بن جاعد الخروصي(ت: 1264هـ) , تقديم وتحقيق: د. محمود وليد خالص, ابو ظبي , هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث , دار الكتب الوطنية , 2011م.
- الرسالة القشيرية : ابو القاسم القشيري, تحقيق : عبد الحليم محمود بن الشريف , دار المعارف – القاهرة , د. ت.
- شرح المفصل : يعيش بن علي بن يعيش(ت: 643هـ) , قدم له: أميل بديع يعقوب, دار الكتب العلمية – بيروت- لبنان, ط1, 1442هـ, 2001م.
- شعر ابن الفارض: جودة نصر, دار المعارف- بيروت, ط1, 1971.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية : أبو نصر أسماعيل الجوهري (ت: 393هـ) , بتحقيق: احمد عبد الغفور عطار , دار العلم للملايين – بيروت , ط4 , 1407هـ - 1987م.
- كتاب العين: ابو عبد الرحمن الخليل بن احمد الفراهيدي(175هـ) , بتحقيق: د. مهدي المخزومي , د. أبراهيم السامرائي , دار ومكتبة الهلال .
- كشف السر الغامض في شرح ديوان ابن الفارض : عبد الغني النابلسي(1143هـ) ,دراسة وتحقيق: خالد الزرعي , قدم له : الدكتور بكري علاء الدين, دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع , سوريا – دمشق, ط1, 1438هـ - 2017م.
- كشف الوجوه الغر لمعاني نظم الدر : عز الدين محمود كاشاني (735هـ) , تصحيح وتحقيق: محمد بهجت , آيت إشراق , طهران- إيران , ط2, 1969م.
- لسان العرب : جمال الدين ابن منظور الأنصاري (ت: 711هـ) , دار صادر – بيروت ط3, 1414هـ.
- المعاقبة في نظام اللغة العربية : وحيد الدين ظاهر عبد العزيز , دار الوفاء للطباعة والنشر, الاسكندرية , 2006.
- منتهى المتدارك في شرح تائية ابن الفارض : الشيخ سعد الدين محمد بن احمد الفرغاني (ت: 700هـ) , ضبطه وصححه وعلق عليه : الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي , دار الكتب العلمية – بيروت , ط1, 2007م.
- نقد التصوف : شريف هزاع, مؤسسة الانتشار العربي – بيروت 2008.
- ديوان ابن الفارض: ابن الفارض, بتحقيق: عبد الخالق محمود , دار المعارف, ط1, 1984.

البحوث والدوريات:

- أثر القراءات القرآنية الشاذة في التوسع اللفظي لكلمات اللغة : سهل ديرشوي , نبيل محمد المحجوب , مجلة بلاغ للدراسات الإسلامية والانسانية , عدد2, مجلد , 1, 2021م.
- قراءة نقدية في خصائص الشعر الصوفي الفنية (تائية ابن الفارض أنموذجا): محمد كبيري, مجلة اللغة العربية وآدابها , العدد: 36, جمادي الأول : 1444-كانون الاول 2022م .
- المعاقبة النحوية وتطبيقاتها الدلالية (معاقبة الافعال نموذجا) : احمد عطوف الديرشوي ,عبد الوهاب زكريا, ادهم حموية , مجلة الاسلام في آسيا, مجلد 18, عدد 3, ديسمبر, 2021م.
- التضام والتعاقب في الفكر النحوي : نادية رمضان النجار, مجلة علوم اللغة , عدد 4, مجلد 3, 2000م.
- كريم سالم م. س. (2024). دلالة الفعل المضارع في سورة (الزمر) دراسة نحوية دلالية. مجلة جامعة تكريت للعلوم الانسانية, 31(2).https://doi.org/10.25130/jtuh.31.2.2024.02